

فَمِنْ جِيلٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَلَهُ فَضَائِلُ يَدَّعِيهَا، وَأَنْسَابٌ يَرْتَفِعُ بِهَا أَحْيَانًا إِلَى آلِهَةِ السَّمَاءِ، وَأَحْيَانًا إِلَى أَعْظَمِ الْقَدِيسِينَ فَضْلًا عَنْ
الْمَنَاقِبِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي لَا شَيْكَ لَهَا فِيهَا مِنْ أَجْيَالِ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ. وَلَا غَرَابَةَ فِي هَذِهِ الدَّعَاوَى إِذَا سَوَّغَتْهَا ظَوَاهِرُ الْأُمَّةِ وَسَانَدَتْهَا
الْقُوَّةُ وَالثَّرْوَةُ وَالْكَلِمَةُ الْغَالِبَةُ. وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ أَنْ تَشِيَعَ هَذِهِ الدَّعَاوَى بَيْنَ أُمَّمٍ، لَا قُوَّةَ لَهَا وَلَا مَالَ وَلَا غَلْبَةَ... وَأَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ فِي هَذِهِ
الْأُمَّمِ أَكْبَرُ مَزْعَمٍ، وَأَشَدُّ غُرُورًا مِمَّ تَكُونُ فِي غَيْرِهَا! كَأَنَّهَا هِيَ عَوْضٌ عَمَّا فَقَدَتْهُ الْأُمَّةُ مِنْ دَوَاعِي الْفَخْرِ الصَّحِيحِ، وَعِزَاءُ مَا تَصْبُو
إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنْانِيَّةٌ قَوْمِيَّةٌ تَجْرَى عَلَى وَتِيرَةِ الْأَنْانِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ فِي الظُّهُورِ أَوْ الضُّمُورِ. كَانَ الْمَصْرِيُّونَ
يَرَوْنَ أَنَّ الْمِصْرِيَّ هُوَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ، ثُمَّ تَتَوَلَّى الدَّرَجَاتُ بَعْدَهُ إِلَى السَّادِسَةِ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْيُونَانِيِّ عِنْدَهُمْ فِي تَارِيخِهِمُ الْقَدِيمِ، وَكَانَ
الْيُونَانِيُّ يَحْمَدُ اللَّهَ أَنْ خَلَقَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ... ثُمَّ جَاءَتْ الْعَصُورُ الْأَخِيرَةُ فَإِذَا كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ أُمَّمِ الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ تَزْعُمُ زَعْمَهَا،
وَتَفْتَخِرُ عَلَى الْأُمَّمِ الْأَخْرِيَّاتِ... وَأَصْبَحَ الْفَخْرُ بَيْنَ الْأَجْنَاسِ عَلَمًا...! نَعَمْ أَصْبَحَ الْفَخْرُ الْقَدِيمُ الَّذِي نَشَأُ مِنَ الْخُرَافَاتِ الْقَدِيمَةِ عِلْمًا
جَدِيدًا لَهُ حُرْمَةُ الْعُلُومِ عَلَيْكَ وَعَلَى عَلَيْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ مُؤْمِنِينَ. وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْجَدِيدَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِيغَةً لَتِلْكَ الْخُرَافَةِ الْعَتِيقَةِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ
مِنْ نَتِيجَةٍ إِلَّا تِلْكَ الَّتِي كَانَ الْأُورُوبِيُّونَ يَزْعُمُونَهَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عِلْمٌ، وَقَبْلَ أَنْ تَكُونَ لِلْأَجْنَاسِ دِرَاسَةً... وَهِيَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْ فِي
الْوُجُودِ، وَأَنَّ الْحَاكِمِينَ مِنْهُمْ الْيَوْمَ أَصْلَحُ النَّاسِ لِلْحُكْمِ، وَهُمْ أَصْلَحُ النَّاسِ لِلدَّوَامِ فِيهِ... وَأَمَّا الْأُمَمُ الْآخَرَى فَلَا تَصِيبُ لَهَا إِلَّا نَصِيبُ
النَّبْعِ الَّذِي لَنْ يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَطْمَعَ فِي الْمَسَاوَاةِ الْآنَ وَلَا فِي أَيِّ زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ. وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ صَادِقٌ شَرِيفٌ فَسَوَاءٌ قَسَمْنَا الْأُمَّمَ
إِلَى أَرِيَّةٍ وَسَامِيَّةٍ، أَوْ بِيضَاءِ ذَاتِ أَلْوَانٍ فَالْنَتِيجَةُ وَاحِدَةٌ فِي جَمِيعِ هَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ، وَهِيَ أَنَّ الْأُورُوبِيِّينَ هُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَبٍّ وَحَضٍّ،
وَأَنَّهُمْ هُمُ السَّادَةُ الْأَعْلَوْنَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَسُودِينَ الْأَدْنَى حَاجَزٌ لَا يُعْبُّ، وَتَفَاوُتٌ لَا تَدَارُكُ لَهُ مَا بَقِيََتِ الْأَرْضُ أَرْضًا، لَقَدْ فَعَلَهَا
النَّمْسَوِيُّ "فَرِيدْرِيكْ هِرْتز" وَقَالَ مَا قَالَ وَأَجْرُهُ عَلَى الَّذِي خَلَقَهُ!! قَالَ لِعُلَمَاءِ الْأَجْنَاسِ الْمُتَعَصِّبِينَ: إِنَّكُمْ مَخْطُئُونَ جِدًّا مُخْطِئِينَ،
وَأَنَّ أَصْلًا مِنَ أَصُولِ الْأُمَّمِ الْمُخْتَلِفَةِ لَا يَخْلُو مِنْ أَوْشَابٍ كَثِيرَةٍ يَدْخُلُ فِيهَا شَرْقِيُّونَ وَغَرْبِيُّونَ، وَإِنَّهُ مَا مِنْ مَحْمَدَةٍ تُدْعَى لِأُورُوبَا إِلَّا
وَلِلْأَجْنَاسِ وَمَا مِنْ مَذْمَمَةٍ تُدْعَى عَلَى الْأَجْنَاسِ الْآخَرَى إِلَّا وَفِي أُورُوبَا قَدِيمُهَا وَحَدِيثُهَا مِثْلَاتُهَا، وَأَيَّدَ كُلُّ قَوْلٍ بِبِرْهَانٍ... وَلَا يَرِيدُ
"هِرْتز" أَنْ يَقِفَ فِي الْإِنْصَافِ عِنْدَ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ، وَلَا جِنْسٍ مِنَ الْأَجْنَاسِ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْفَوَاصِلَ بَيْنَ أَيِّ شَعْبَيْنِ فِي الْعَالَمِ
لَيْسَتْ مِنَ الْبُعْدِ وَالْحِيلُولَةِ بَحِثٌ تَصْتَعِصِي عَلَى التَّقَارُبِ.